

آخر مظهر

لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى

١٨٩٥ - ١٩١٤

استناداً الى وثائق غير منشورة

بنام

الكسيس بوغوليوبسكي ، والاب جبرائيل لوثنك اليسوعي

لَقَدْ اعتاد الباحثون ، اذا ما تكلموا عن تدخل روسية بشرون الشرق الادنى الدينية ، ان يرقوا بظاهر. هذا التدخل الى معاهدة كاينارجي المعقودة سنة ١٧٧٤ ، والواضحة ، في نظرهم ، مبدأ اهتمام روسية بشرون الطائفة الارثوذكسية في سورية . على ان هذا الاهتمام يرقى ، في الحقيقة ، الى ما قبل القرن الثامن عشر ، فيبدأ في اواخر القرن السادس عشر ، عهد اخذت موسكو تظهر بظاهر الدولة الكبيرة مستقلة بطاريكتها بشورنها الدينية . منذ ذاك العهد ، بدأ بطاركة العالم الارثوذكسي يتجهون بانظارهم نحوها ، فيألونها المعونة المادية خاصة . ولنا في رحلة البطريرك مكاريوس (١٦٥٢ - ١٦٥٩) التي نُشرت مرات " ، دليل على ما كانت تحف به روسية اجبار الارثوذكس من هدايا وإعانات . وكان يقابل هذه الرحلات الى روسية رحلات أخرى يقوم بها عدد من الروسيين فيزورون البلاد المقدسة ويقومون مدة في سورية . وقد يُدفع بعضهم الى درس الطاقوس الشرقية الارثوذكسية والمقابلة بينها وبين طقوسهم المسكونية .

هذا ملخص ما كان من العلاقات بين العالم الروسي والعالم الارثوذكسي في الشرق الادنى ، قبل معاهدة كاينارجي . وقد كان من المنتظر ان تأتي

هذه المهادنة بصلات جديدة ، متابمة . على انها ظلت مدة طويلة محفوفة بالفضوح حتى لا يمكننا درسا وتمييز مظاهرها .

الى ان كان القرن التاسع عشر ، فرأينا الحكومة الروسية تهتم الاهتمام الجدي باولئك الزوار الروس الذين لم ينهظوا عن رحلاتهم الى الشرق الادنى ، فتعمل على تسهيل اقامتهم وتأمين احوالهم ولا سيما من الوجهة المادية ؛ كما انها بدأت تهتم كذلك بحالة ارتوذكس الشرق ، فنظمت ارساليات دينية كانت تقوم بكل نفقاتها . ولكن نتائج هذه الاعمال كانت ضئيلة ، لم يرض عنها ولاة الامر انفسهم في روسية . اما اسباب هذا الفشل فكانت تُنسب من جهة الى مقاومة الحكومة التركية ، ومن جهة اخرى الى معاكسة الاكليروس الارثوذكسي نفسه ، وكل بطاركتيه من اليونان .

بيد انه حصل حدث مهم في السنة ١٨٨٢ . تأسست جمعية روسية دعيت نفسها « جمعية فلسطين » ، واتكلت على رجل شديد الايمان ، بيد الهبة ، قوي الارادة ، هو باسيل رخيتروف . فهم غايات الحكومة الروسية ، واكثرت لم يكتف بمظاهرها الضئيلة ، فوسع نطاق عمله ، واضماً نصب عينيه تحقيق فكرة اولية هي مقاومة الاكليروس اليوناني . كان يرى ان مصائب الارثوذكسية ، ولا سيما من حيث الاخلاق ، ناتجة من الغرب ، وان الاكليروس نفسه مصاب بوباً « الاستغراب » ، فاذا عملت « جمعية فلسطين » على محاربة الاكليروس اليوناني ، تكون قد مهدت لها السبل الى ترقية ارتوذكس سورية . علماً واخلاقاً ، مستندة في ميسرتها هذه الى معاضدة الزوار والسياح الروسين المقيمين او المارين في سورية . وعليه فقد كانت السياسة الوطنية الروسية ، في نظر رخيتروف ، متعلقة بالسياسة الدينية ، وتابعة لها . من الحق ان هذه النظرية لم ترق جميع اعضاء الجمعية ، وقد رآها بعضهم على قسط وافر من التطرف . الا انها لم تحدث اختلافاً يذكر ، فأخذت الجمعية تقوم بجهود جبارة ، سائرة ، على مدة ، جنباً الى جنب ، مع رجال السياسة الروسين .

وكان اول ما رمت اليه تزعم بطريكية اورشليم من الاكليروس اليوناني . واكن كل ما قامت به من المحاولات كان نصيبها الفشل . فاتجهت انظارها

الى بطريركية انطاكية ، والنصر اليوناني فيها اضعف ، وارثوذكس سورية ارتق ثقافة ، واوفر غنى ، واقرب الى المشاغبة ، من ارثوذكس فلسطين . وهكذا تحولت اعمال الجمعية الى سورية ، على احتفاظها باسمها الاصلي اي « جمعية فلسطين » . فبدأت مشاريعها سنة ١٨٩٥ . ولم يضر عليها خمس سنوات حتى كان لها ٤٢ مدرسة روسية في مختلف الاورشيات من بطريركية انطاكية . وفي السنة ١٩١٣ ، كان لها ٨٢ مدرسة فيها ١٢٠٠٠ تلميذ من الجنين . اما في فلسطين فلم يكن لها الا ٢٥ مدرسة . وكل هذه المدارس كانت مجانية ابتدائية ، يعلم فيها اساتذة سوريون يديرهم على الغالب مديرون من الروس . وكانت مقسومة الى منطقتين : المنطقة الشمالية تتعلق بمفتش مركزه طرابلس ، والمنطقة الجنوبية يراقبها مفتش آخر مركزه دمشق . وكانت الجمعية تنتظر من كل هذه الاعمال نتائج دينية . اما الحكومة فكانت ترجو نتائج سياسية . ومن هنا يقدر الباحث ان ذلك الاتفاق الاصلي بين المؤسسين لم يكن ليديم طويلاً بسبب اختلاف النياتين .

وقد فازت الجمعية بنصر باهر سنة ١٨٩٩ ، اذ علمت على تزوع البطريركية في سورية من يد الاكليروس اليوناني . وكانت الحكومة قد بدأت منذ السنة ١٨٩٥ ، سنة دخول الجمعية سورية ، بتوزيع عدد مهم من الاوسسة ، فمنحت البطريرك اسبيريدون ، وكان من المحكوم عليهم في نظر الحكومة والجمعية ، وساماً من اكبر اوسسة الامبراطورية وهو وسام القديس اسكندر نفسي ؛ ومنحت المطران غرانيل ، متروبوليت بيروت ، وسام القديسة حنة من الدرجة الاولى ، وكلاً من المطران اثناسيوس ، متروبوليت حمص ، والمطران جراسيموس ، متروبوليت سلوقية ، وسام القديس فلاديمير من الدرجة الثالثة . ومنحت عدداً من رجال الدنيا اوسسة من جوقة القديس ستانيلاس من الدرجة الثالثة ، وبعض المدايات^{١)} . ولم يُجرم موظفو الدولة التركية من هذا التوزيع .

(١) عن كتاب مدير (انس الامبروي المؤرخ في ٢٨ اذار ١٨٩٦ ، برقم ٢٢٠٩ ، وكتاب جندوفسكي ، السفير في القسطنطينية ، في ٢٧ حزيران ١٨٩٦ ، رقم ٧٧٤

فُتِحَ ناظم باشا ، والي دمشق ، وسام النسر الابيض^(١) . وقد قامت الحكومة التركية ، من جهتها ، سنة ١٩٠٢ ، فاعترفت بالمدارس الروسية في بلادها . على ان هذه المدارس ، مع ما كلفته من الاهتمام ، كانت عرضةً لانتقادات كثيرة من وجوه مختلفة :

كان اعضاء الجمعية « الصيغون » ، حتى رئيسها الفرانودق سرج (الذي اغتيل سنة ١٩٠٥) ، لا يرون بعين الرضى تعدد المدارس في سورية ، معتبرين ان في هذا المظهر انحرافاً عن غاية الجمعية الاصلية . وكان ارباب السياسة الروسية يرون في المدارس المذكورة ادوات لتشر النفوذ الروسي في تركيا ؛ ولكنهم لم يكونوا يهتموا بلائمة عقائد الجمعية ، ولا بتعليم اللغة الروسية ، رها من النقاط المهمة في انشاء هذه المدارس .

اما السكان فلم يكونوا يطلبون الامدارس عملية تعليم اولادهم علوماً يمكنهم استخدامها حالاً ، فتساعدهم على تحصيل معيشتهم . ولهذا كانوا يطلبون باصلاح تعليم اللغات الاجنبية . وهو ما لم تكن تصني اليه الجمعية ، رافضةً تعليم اللغة الفرنسية واللغة الانكليزية .

واما الاتراك فكانوا يرون هذه المظاهر فيمتدرون بها ، ويستفيدون من الحوادث ، كما فعلوا على اثر الحرب الروسية اليابانية . ولكنهم لم يتابعوا سياستهم هذه في عرقلة سير المدارس الروسية^(٢) .

حتى كانت السنة ١٩٠٦ ، فانت بفشل مهم في السياسة الروسية المدرسية . وكان سببه ارتداد كس سورية انفسهم . وتفصيل ذلك انه في السنة ١٩٠٦ ، توفي اول بطريرك وطني وهو البطريرك ملاتيوس . فرشحت روسية المطران اثاناسيوس ، عطا الله ، متروبوليت حمص . ولكنها لم تنجح ، اذ فاز بالبطريركية

(١) كتاب زيدرفيف ، الفير في القسطنطينية ، ١٩٠٠ قورز ١٩٠٠ - وان هذا التاريخ يبدفنا الى السؤال : هل من علاقة بين هذا الرسام الكبير المشوح الى والي دمشق ، وبمناج السياسة الروسية في انتخاب بطريرك عربي الاصل في السنة ١٨٩٩ ؟

(٢) تقرير سرتي لباتيوشكوف ، قصل روسية في دمشق ، بتاريخ ٢ تشرين الاول سنة ١٩٠٥ ، رقم ٣١٦

المطران غريغوريوس حداد ، من طرابلس ، الذي لم يكن من محبي روسية ، ولا من الراضين عن سياستها . ومنذ ذلك الحين اخذت العلاقات تتوتر بين الجمعية ، وفتالية روسية في دمشق ، والطائفة الارثوذكسية .

وقد صرح باتيوشكوف ، قنصل روسية في دمشق ، في تقرير رسمي « ان كثيراً من التلميذات . تترك مدارسنا وتدخل في مدارس اللعازيين^(١) او في مدارس الانكليز البروتستانت » وهو ينسب هذا الحادث الى رغبة الاهالي في المهاجرة الي اميركة ، ويذكر من حججه طلب عدد من الفلاحين ان تدخل المدارس الروسية اللغة الانكليزية في مواد التعليم . وهو يعود الى هذه الفكرة في حديثه لاحد مراقبي الجمعية ، فيلفت نظره الى هذه الظواهر المؤسفة ، وينصحه « بتعليم اللغة الفرنسية ، على الاقل ، وهي لغة نافعة في التجارة » . ولكنه يزيد قائلاً : « يظهر ان هذا معاكس لقوانين الجمعية . » وفي تقرير آخر^(٢) يقوم القنصل بجملة شديدة على طريقة تعليم اللغة العربية في تلك المدارس ، فاسباً المعلمين الى جهل مهتهم احياناً ، قائلاً ان عددهم قليل ، على كل حال ، ومعاشهم ضئيل .

وكأنه اخذ على نفسه ان يعمل جهده في تحمين تلك الحالة ، فكتب في السنة نفسها^(٣) : « لقد اخذ السكان يعتقدون شيئاً فشيئاً ان للجمعية غايات خاصة تجملها تصرف هذه المدارس عن كل تظاهر علني باعمالها . فلا حفلات ختامية للسنة المدرسية ، ولا توزيع جوائز . . . ولا يخفى ما في هذا من الضرر للجمعية . ومما يمكن من أمر فان مدارس الجمعية احط من مدارس منافسها . » اما المعلمون الروسو الاصل ، فكانوا يظهرن عجرفة ممقوتة ، ويعيشون منفردين عن زملائهم السوريين ، على عكس ما يظهر بين معلمي سائر البعثات الاجنبية ، فانهم ، وان كانوا متحين الى رهبات او جماعات دينية ، يظنون على اتصال بكثير من الوطنيين .

(١) اي مدارس راهبات الحجة .

(٢) بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٠٦ ، رقم ٣٦

(٣) بتاريخ ٢٦ حزيران ١٩٠٦ ، رقم ٨٠

وان في المراسلات بين قنصلية دمشق ، وسفارة الاستانة ، موضوعات همة تظهر التذمر والاحتجاج . من ذلك انه في السنة ١٩٠٩ ، اقبلت الجمعية كثيراً من مدارسها في ابرشية عكار بسبب ما قام به متروبوليتها ، المطران باسيلوس ، من عمل عدته الجمعية غير لائق . فكتب السفير تشاريكوف ، من الاستانة ، يوصي القنصل بان يزور البطريرك ، فيقنمه بضرورة حرمان المطران باسيلوس من نصيبه بالاعانة المطاة بطريركية انطاكية ، « على الاقل ، حتى يعمو بسلوكه واعماله ، تذكر تلك الحملة الشائنة التي قام بها على زوسية وعلى جمعية روسية .^{١١} ولكن هذا الترتب بالملاقات لم يطل . فان الاحتياجات علمت على التخفيف من تلك الصعوبات التي ذكرها قنصل روسية بين قنصلياتهم والطائفة الارثوذكسية . وكالت الحكومة الروسية قد اعلمت عزمها على امداد اجار الطائفة باعانات سنوية ، ودفعت فملاً الى البطريرك ٤٠٠٠٠٠ فرنك عن السنة ١٩٠٨ . فقام غبطة في آخر السنة المذكورة ، بتاريخ ١٩/٦ كانون الاول ، بمناسبة عيد الامبراطور ، بحملة باهرة في كاتدرائية دمشق ، التي فيها خطاباً وثانياً في مآثر جلالته ومآثر الدولة الروسية . ولهذا ، عندما بلغه القنصل رغبة السفير في حرمان المطران باسيلوس من نصيبه ، لم ير صعوبة في تحقيق تلك الرغبة . فخص مبلغ الاغاثة ، على ثلاث سنوات ، (٣٦٠ ليرة فرنسية ذهباً) لتسديد ما تركه سابقا المطران باسيلوس ، وهما المطرانان كريستوس ونيقوديموس ، من ديون بلغت ٤٠٠٠٠٠ غرش ، « عملة طرابلس »^{١٢} .

الآن ان آمال القنصل بهذه الاستعدادات الطيبة لم تتحقق تماماً . فان المعارضة عادت الى الوجود عندما حان وقت توزيع الاعانات . فاضطر اوليا الامر الى زيادتها حتى بلغت ٨٠٠٠٠٠ فرنك ذهبي ، اي ما يعادل تقريباً ٤٥٠٠٠٠ فرنك من العملة الحالية . وكان البطريرك ، فوق ذلك ، يطلب ، بواسطة ممثله في الاستانة ، ان تسدد روسية ما على البطريركية من ديون قديمة . وهو طلب ود عليه الامير يوريس شاكوفسكي ، تحصل دمشق الجديد ، بانه مستحيل

١١ من رسالة السفير المؤرخة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٠٩ ، رقم ٨١

١٢ من رسالة البطريرك غريغورديوس في ١٥ حزيران ١٩١٠ ، رقم ٢٨

التحقيق . وزاد قائلاً : « ان السفارة الامبراطورية تأمل ان ترى كيفية انطاكية عاملة على تهيئة نظام عام ، توافق عليه الحكومة العثمانية ، وتنظّم بوجه اعمال البطريركية الادارية والمالية . »^{١)}

وقد كانت هذه الرغبة رغبة القنصل المقيم في مركز البطريركية ، والواقف على كل ما هناك من صعوبات ومشاحنات ، اكثر منها رغبة الحكومة الروسية ، او رغبة الامبراطور نفسه . لان الوزارة التي كانت قد ارسلت الى القنصل مبلغ ٨٠٠٠٠٠ فرنك ، لم تطلب سوى البلاغ بوصول المال ، مع وصل باعضا . البطريرك بتسلم القيمة ببجملها . وهذا ، وفقاً لروح تقرير وزارة الخارجية الذي اقره الامبراطور بتاريخ ١٧ تموز ١٩٠٨ . . . ولم تكن السفارة تتكلم كالوزير تماماً . اما القنصل فلا يظهر انه اهتم باقوال الوزير ، ولا باقوال السفير . بل كتب بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٠٩ ، تحت رقم ٣٣٦ ، معلناً الى البطريرك وصول القيمة ، قائلاً : « انه من الآن فصاعداً ستولى القنصلية توزيع انصبة الارشيات ، فتغطي هي نفسها كل ابرشية ما يصيبها من المال . » وفي ٢٣ كانون الاول (رقم ٦٤) يُعلن طريقة التوزيع : كل ابرشية تتال من ١٢٠ الى ١٥٠ ليرة فرنسية ذهباً ، ما عدا ابرشيتي بيروت وطرابلس ، فلا تتال كل منهما الا ٥٠ ليرة ، لانها « ليست بحاجة الى الاعانة » . وهو يسير الى ابد من ذلك ، فيقسم كل نصيب الى قسمين : قسم للنفقات الخاصة لا يواجب انفاقه احد ، وقسم لاعانة المدارس والكنائس ، ويجب ان يدون بهذه النفقات حساب خاص يُرفع الى القنصلية .

وعلى هذا المبدأ ، تناول البطريرك ، تلك السنة ، ١٢٠٠ ليرة فرنساوية ذهباً قُسمت كما يلي : ٤٠٠ ليرة لنفقاته الخاصة ، و ٤٠٠ للمدرسة الاكليريكية في دير البلند ، و ٤٠٠ للمدارس والكنائس . وقال مقربوليت حمص ٦٠ ليرة لمدارسه وكنائسه . وقد تناول ، عدا ذلك ، اعانة سنوية تبلغ ٥٠٠ روبل (نحو ١٤٠٠٠ فرنك ذهباً) للمدرسة الارثوذكسية في حمص المؤسسة تلك

(١) من رسالة قنصل دمشق بتاريخ ٩ كانون الاول ١٩٠٩ ، رقم ٣٣٥

(٢) من رسالة بتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩٠٩ ، رقم ٦٣

السنه . وكذلك نال كل من مطارنة حماه ، وحلب ، وديار بكر ، وقاب
 مرسين ١٥٠ ليرة . على ان الانسين الاخيرين لم يكن عليها تقديم حساب
 لتفصيل دمشق ، لانها خارجان عن منطقة سورية . وقالت ابرشيات اللاذقية ،
 وزحلة ، وحران ، وصور ، ١٥٠ ليرة لكل منها . اما ابرشية لبنان فلم
 تل الا ٦٠ ليرة . وكان قسم التفقات الخاصة يبلغ من ٢٠ الى ٥٠ ليرة .
 اما نتيجة هذا التوزيع فكانت ضجة صاخبة اشترك فيها السفير ، وجمية
 فلسطين ، والبطريرك ، والمطارنة ، واعيان الطائفة . حتى الجرائد الروسية
 نقضها ، فذكرت جريدة « نوفي ثريا » بتاريخ (نيسان ١٩١٠) ، التأثير السيئ
 الذي احدثته تلك الطريقة في التوزيع ، في الارسط الارثوذكسية السورية .
 وارسل وزير الخارجية يطلب ايضاحات من السفير في الاستانة ، ويستشكر
 تلك الغيرة التي اظهرها قنصل دمشق ، قائلاً : « اعتقد من واجبي ان الت
 نظركم الى ان فكرة الامير ساكوفسكي بتوزيع الاعانات رأساً على المطارنة
 المؤسسات الدينية ، خارجاً عن البطريرك ، لا اراها صالحة . لان هذه الطريقة
 في التوزيع تكون ، في الحقيقة ، تدخلاً بشؤون البطريركية الداخلية قد يؤدي
 الى نتائج مؤسفة . وقضلاً عن ذلك ، فان طريقة كهذه تماكس المعنى الدقيق
 للقرار المقدم الى الامبراطور والذي اقرته جلالتك بتاريخ ١٧ تموز ١٩٠٨ .
 وترون طيه نسخة عنه . »^{١١}

وهكذا قضي على تجربة قنصل دمشق .

اما المشكلة المدرسية فكانت اصعب من ان تحل بمثل هذه السهولة .
 كانت الحكومة الروسية ترغب في اصلاح هذه المدارس مدفوعة بروح السياسة
 الوطنية العملية . وكانت الجمعية ، في استنادها الى روح التقليد باسم روسية
 المقدسة ، ترفض كل تلك المحاولات الاصلاحية بحجة انها مأخوذة عن الروح
 الغربية . وقد زاد تشبها بهذه المبادئ التقليدية حتى انها فكرت ، اذا
 اضطرت الى قبول الاصلاح ، بالناس المدارس كلها .

على انه بالنظر الى الروح الجديدة في روسية البرلمانية ، والى الروح الجديدة

كذلك في ترشيح الفتاة ، اخذت الحكومة الروسية تشع في مرمى انظارها على آسية التركية ، فتعدّ المدّة لسبع اشهر في الشرق الادنى . وهو ما كان قد خطه السفير تشاريكوف الى قنصل دمشق ، بناء على تعليمات وزارة الخارجية .
وكان من مظاهر هذه الخطة ان أعطي قنصل دمشق وحده حق التدخل السياسي بالشؤون المتعلقة بطبركية انطاكية . اما سائر القناصل فكان عليهم ألا يتخلوا المراقبة الدقيقة لحوادث الحياة الدينية ومظاهرها في الابريشيات . على انهم لم يكن من حقهم ان يبدوا الملاحظات او يطروا النصائح في الشؤون الدينية ، لا الى اعضاء الاكليروس ولا الى الملمانيين . ولم يكن من حقهم ان يقبلوا المزائن ولا ان يجزئوها ، ولا ان يسعروا التصريحات او المطومات المتعلقة بالطبركية ، او بشؤون الكنيسة الداخلية .

فكان من الطبيعي ان يزداد نفوذ قنصل دمشق ، اذ صار في يديه سلاح جديد يستعمله في حلّ مشكل المدارس المثلث . لان الجمعية عندما تكلمت بعزمها على اقفال متروصتها ومدارسها البالغة ٨٢ ، اقلقت فعلاً كل اولياء الامر . فطلب السفير من قنصل دمشق تقريراً ضافياً مفصلاً . فارد القنصل الى الاساتنة ، وكانت جمعية فلسطين قد ارسلت ايضاً الى الاساتنة ، في كانون الاول ١٩٠٩ ، سكرتها العام ، الاستاذ دمقريفسكي ، ومفتش مدارس الجليل ، السيد ريباجسكي ، وها مشهوران باللطف والمرونة . فاستقبلها السفير واضاف اليها السيد كوهتنسكي ، وكيل القنصل في ييزرند ، بصفة مقرر عام .

ولم يكفد الامير شاكوفسكي يرجع الى دمشق حتى ارسل الى السفير ، في ١٨ كانون الاول ١٩٠٩ ، رقم ٣٦ ، التقرير المطلوب ، متضمناً فكرة رجال النيابة وموظفي حكومة الامبراطورية ، حاملاً حملة شديدة على نظريات الجمعية ، وخاصة تعليم اللغة الروسية في مدارسها ، مستنداً في كل ذلك الى روح الوطنية المضاعفة ، والسياسة الروسية الحثثة ، مصرحاً انه ليس بالامكان ان نذكر بالفاء هذه المدارس . والأقان هذا العمل انتحار ادبي لروسية

في الشرق . وذلك ان الجمعية - على كونها جمعية خاصة في نظر الشرع - لا يمكن ان تنفصل في نظر الشرقيين عن الحكومة الروسية . ومن البراهين على ذلك انه ، مدة الازمة البطورية في السنة ١٨٩٨-١٨٩٩ ، كانت السفارة الروسية تعضد ، لدى الباب العالي ، حق الطائفة الارثوذكسية الوطنية في سورية ، وتضع تحت تصرف قنصل دمشق مبالغ كبيرة في سبيل مساعدة المطارنة الوطنيين في ذلك الانتخاب ؛ تقوم بذلك لحساب جمعية فلسطين : وهو امر معروف مشهور . ثم ان الحكومة التركية اعترفت رسمياً سنة ١٩٠٢ بهند المدارس بصفة كونها روسية . وان لنا فيها ادوات حسنة للعمل والتأثير لا يجدر بنا ان نهملها في هذه الايام ، ولا نعرف ما يجتبي المستقبل للدولة التركية .

ولكن ان يكن من المستحيل الفناء المدارس الروسية ، فمن المستحيل كذلك ان تُترك في حالتها الحاضرة . لا شك في انها تجابه أزمة مدرسية شديدة ، وهو امر لا ينكره مجلس ادارة الجمعية . فما هي اسباب هذه الازمة ؟ هي اولاً الجمود مدة ٢٥ سنة في عصر كل ما فيه يتحرك ، ويتحرك بسرعة . ثم الانصراف عن تعليم اللغات الغربية . وفي اي حالة يكون التفوذ الروسي اوسع واعنى اثرًا ؟ أفي مدرسة خالية من التلامذة يكون فيها تعليم اللغة الروسية اجبارياً ، ام في مدرسة لا تجبر على تعليم هذه اللغة ، ولكنها مأهولة بالتلامذة ؟ لندخل في مناهج التعليم اللغة الفرنسية واللغة الانكليزية . هذا شرط اساسي بدونه لا حياة لمدارس الجمعية .

ثم ان القنصل يعرض فكره في مسألة التعليم المجاني ، فلا يوافق عليه . ويقدم ملاحظات وآراء بشأن فتح مدارس للتعليم الثوري ، طالباً اصلاحاً تاماً لتنظيم مدارس الجمعية .

وفي اوائل سنة ١٩١٠ ، بعد ان قام مفتش الجمعية بدورة على المدارس ، وصلوا الى دمشق في ٢٧ كانون الثاني ، فاجتمعوا في دار القنصلية بمشي وزارة الخارجية . وكان قد أُضيف الى المفتشين المذكورين اعلاه السيد ستاسيفتش ، مفتش مدارس سورية الجنوبية .

وهناك طالت المناظرة واحتدمت ، وكان لكل فيها نصيب وافر . واخيراً اسفرت عن ترك نظرية الجمعية الى الاخذ بالآراء الاصلاحية . ثم نُظِم مشروع بالاصلاحات المهنة . ولقد كان من الممكن تنفيذها حالاً ، لولا مجلس «الدوما» الذي كان يرغب كل الحسابات ، ولولا التسلسل الاداري الذي كان يؤخر كل التقارير . واخيراً أقرت التعديلات الاصلاحية لأول كانون الثاني ١٩١٣ . وكانت الجمعية في تقريرها المرفوع الى الامبراطور عن السنة ١٩١٢ - ١٩١٣ ، وفي مشروعها لموازنة السنة ١٩١٤ ، قد ادخلت الاصلاحات المفروضة .

ثم جاءت الحرب ، فغيرت مجرى كثير من المشاريع . على ان مفتش المدارس في سورية الشمالية قرّر فتح المدارس ، ومتابعة العمل^١ . حتى اذا شمرت الحرب ، اخذتصل بيروت ، السيد باتيوشكوف ، جميع المعلمين الروسين في صحبته ، على ان تواصل المدارس عملها بواسطة المعلمين الوطنيين . ولكن هذا التراد لم يصادفه النجاح ؛ كما ان البطريك جرب ، اثناء الحرب ، ان يحافظ على بعض مدارس البنات فلم ينجح . بل تلاشت هذه المشاريع كلها بتلاشي روسية الارثوذكسية .

بقي ان نسأل عما كان يعرفه ويقولوه المرسلون اللاتين عن هذه التنظيمات الروسية والمشاريع الارثوذكسية ؟ من الحق انهم لم يعرفوا شيئاً مما اطلعنا عليه الوثائق الرسمية . ولا غرابة في ذلك . فان اطلاعهم لا يتجاوز مشاهدة المظاهر الخارجية المدرسية خاصة . وهو ما نتحققه من هذين التحين اللذين نعرضهما على القراء ، على سبيل المقارنة بينهما وبين ما تقدم :

النص الاول يرقى الى السنة ١٨٩٨ ، اي الى اوائل الدعاية الروسية ، وهو مأخوذ من رسالة كتبها الاب جوزف برنيه اليسوعي الذي كان متصلاً بارثوذكس حص وءكار ، قال : « ان موظفي روسية يعملون عملهم ، من مدة طويلة ، بين الارثوذكس . حتى يمكن ان نعتبر اليوم انهم فازوا بالنصر . وها ان قيصر روسية كاد يصبح المأ في نظر روم سورية . يدل على ذلك موقف فلاح من

حمص دخل بيتاً مارونياً في ضواحي طرابلس ، فرأى فيه صورةً لبقولاً الثاني ، ولما سمع أنها صورة امبراطور روسية ، دهش اصحاب البيت ، اذ رأوه يكشف عن رأسه ويأخذ بتمعداد رسم اشارة الصليب ، وبالاجود ، كما يفعل امام مذبح كنيسته ، او امام صورة العذراء ، وصورة القديس جرجس . ولا يخفى ان المدارس الروسية الموجودة تأخذ الاعانات من روسية . وقد فتحت مدارس جديدة حيث لم يكن . وفي كل هذه المدارس تُعطى الاهمية لتعليم اللغة الروسية . حتى اخذت هذه اللغة ، في حمص ، تدخل في التراتيل والصلوات الطقسية ، بل في القداس نفسه . ولكن من الراجح ان هذا الحادث رمضي فقط .»^{١)}

وهذا نص آخر نأخذه عن تقرير وضعه ، في السنة ١٩٠٦ ، ش. كيرن ، ولم يُنشر بالطبع ، على ما نعلم . قال (ص ٣٣) :

« ان البقود الروسي الذي كان عظيماً قبل الحرب الروسية اليابانية قد ضمن منذئذٍ ، ثم ذكر هذا الامر الغريب وهو « ان ارادة سنية (تركية) حرمت على المسلمين ان يذهبوا الى المدارس الروسية . وقد نُفذت هذه الارادة . » وكان ذلك قبل سنة ١٩٠٢ ، كما يُستنتج مما تقدم ، لانه في تلك السنة (١٩٠٢) اعترفت تركية بالمدارس الروسية . اما في ما يخص عدد هذه المدارس فيذكر منها المقرر مدرسة للبنات في بيروت ، وبضع مدارس في حمص ، ومدرسة في بسكنتا ، ومدرستين في طرابلس فيهما ٣٧٠ تلميذاً ، ومدرستين في الناصرة فيهما ١٤٥ تلميذاً . ويذكر ان في القدس ٧٠ تلميذاً ، وفي اللاذقية ٢٠٠ تلميذ .

هذا ما رأينا استخلاصه من تلك الوثائق الرسمية التي لم يسبق نشرها ، ولا نظن انها تُنشر يوماً ما . عسى ان يكون فيه مادةً للمشتغلين بهذه الناحية من تاريخ سنوية المماصر .